إشكاليات التعريب في تعليم العلوم الطبية

أ.د. مروان جبر الوزة
جامعة دمشق
الجمهورية العربية السورية

أ.د. فهد عبد العزيز المهنا
جامعة الملك فيصل
المملكة العربية السعودية

المستخلص:

يعدّ تعريب العلوم الطبية بوابة لتوطين تلك العلوم في البلدان العربية، بيد أنّ مسألة تعليم هذه العلوم باللغة العربية لا تزال موضع خلاف بين المهتمين بتعليم العلوم الطبية على اختلاف مشاربهم، ولم تُعتمد اللغة العربية إلا في قلّة قليلة من الجامعات العربية، فضلاً عما توصم به المنطقة العربية من نضوب وتصحّر معرفي في زمن يجوب فيه أبناؤها من الأطباء آفاق الغرب، ويسهمون في أبحاثه، كلّ بحسب موقعه، ولكن دون أن تنسب هذه الجهود إلى الجامعات والمجتمعات التي جاؤوا منها.

يستعرض هذا المقال وظيفة اللغة في التعليم، ويناقش حجج المؤيّدين والمعارضين لتعريب العلوم الطبية، ويؤطّر لمقاربة علمية متوازنة تسعى نحو إيجاد رؤية مشتركة تكون الأساس لوضع حلول عملية بعيداً عن آمال المستعربين والمستغربين ونيّاتهم.

مقدّمـــة:

يهدف التعليم الطبي في مطلع الألفية الثالثة تبعاً لمنظور منظمة الصحة العالمية إلى تخريج أطباء قادرين على العمل في جميع مستويات الرعاية الصحية وفق مفهوم (طبيب خمس نجوم)، فعلى عاتق طبيب الغد تقع خمس مهام ينتظر منه إنجازها على أكمل وجه؛ فهو **مقدّم للرعاية الصحية**، يمارس رعاية إكلينيكية رفيعة المستوى شمولية الجوانب، فيشخّص الإصابة الجسيمة أو المرض الخطير، ويدبّر المرض المزمن وحالة العجز، ويقدم الرعاية الوقائية من خلال علاقة ائتمان طويلة الأمد مع المريض. وهو **صانع القرار** الذي يختار خلال تقديمه

للرعاية الصحية تقانات قابلة للتطبيق أخلاقياً وذات تكلفة مقبولة. وهو **المُحدِّث (البارع في التواصل)** القادر على تعزيز أساليب الحياة الصحية من خلال التدخُّل المؤكِّد الذي يشجّع المجموعات والأفراد على تحسين صحتهم، منطلَقاً لتحسين صحة البيئة والمجتمع. وهو **قائد المجتمع** الذي يكسب ثقة من يعمل بينهم، ويوفّق بين متطلّبات الفرد والمجتمع، ويبادر الفعل لمصلحة المجتمع. وأخيراً هو **عضو الفريق** الذي يَستَطيع العمل بانسجام مع الأفراد والمؤسسات داخل نظام الرعاية الصحية وخارجها لِسَدِّ حاجات مرضاه ومجتمعه.[24]

إنّ تحديد مواصفات المنتج النهائي في تعليم العلوم الطبية وفق ما تهدف إليه منظمة الصحة العالمية، يجعل من السهل على المتتبع استنتاج وظائف اللغة في عملية التعليم، وتبيان مدى انحراف بوصلة دعاة التعريب ودعاة التغريب عن الأهداف النهائية لعملية تعليم العلوم الطبية، ويسهّل تحديد الاحتياجات اللغوية لطبيب الغد في عصر العولمة.

وظيفة اللغة في التعليم:

تعدّ اللغة أهم أسس التواصل في المجتمعات، فهي وسيلة التعبير عما يجول بخاطر المرء من رغبات وأحاسيس، وما يصادف من مواقف، وهي أداة التخاطب مع الآخرين وتبادل الآراء والأفكار والمشاعر معهم، ولا تقتصر وظيفة اللغة على إمداد الفرد بالأفكار والمعلومات ونقل الأحاسيس إليه، بل إنها تعمل على إثارة أفكار وانفعالات ومواقف جديدة لديه، وتدفعه إلى الحركة والتفكير، وتوحي له بما يعمل على تفتيق ذهنه وتوسيع آفاق خياله، وتنمية قدرته الإبداعية.[10] وإذا ما تتبع الباحث مسار المعلومات تبيّن له أنّ الكائن البشري إنما يستقبل المعلومات من محيطه الخارجي بحواسه الخمس، ومنها تُنقل إلى الدماغ، وهذه المعلومات التي يعالجها الدماغ تنبثق على هيئة مشاعر وأحاسيس وتصورات وأفكار تأخذ سبيل التعبير عنها في معلومات مُخْرَجة لغتها الأولى لغة الإشارة، ولغتها المختزلة الرفيعة هي اللغة المنطوق بها، وفي حين تبقى الحواس الخمس في قفص التذكّر وما يستثيره من أحاسيس ومشاعر، فإن تعابير اللغة هي الوحيدة القادرة على وصف المعلومة وسبيل التلقي والإخراج، وما يستتبع

ذلك لدى المرء من محاكمات واستنتاج. ولا يتّفق علماء اللغة في اقتصار وظيفة اللغة على التعبير والتواصل والتفاهم؛ فإلى جانب التواصل يرى بعضهم أنّ للغة وظائف رئيسة متعددة أخرى يمكن تبيانها فيما يلي:[22]

أ. الوظيفة النفعية: فاللغة هي وسيلة التعبير عن الحاجات والرغبات منذ الطفولة الأولى بصيغة (أريد كذا...).

ب. الوظيفة التنظيمية: وتتمثل في الطلب من الآخر بصيغة الأمر أو النهي (افعل.. أو لا تفعل..).

ج. الوظيفة التفاعلية: وتعني تفاعل الإنسان مع أفراد مجتمعه بوصفه كائناً اجتماعياً، وما تُطوّره لغة المجتمع من صيغ تعبِّر عن تقاليدها وموروثها الثقافي والديني.

د. الوظيفة الشخصية: فاللغة وسيلة الفرد في التعبير عن هويته وكيانه الشخصي وأفكاره ومشاعره ومواقفه إزاء ما يعترضه من قضايا وموضوعات.

هـ. الوظيفة الاستكشافية: وتتمثّل في صيغة الاستفهام عما لا يعرفه الإنسان.

و. الوظيفة الإعلامية: فاللغة وسيلة نقل المعلومات والخبرات بين أفراد المجتمع ومن جيل إلى آخر.

ز. الوظيفة التخيلية: وتتمثّل في التصوير البياني والقوالب اللغوية كالشعر والأهازيج والأغاني الشعبية.

ح. الوظيفة الرمزية: تعدّ اللغة رموزاً ذات دلالات تشير إلى موجودات في البيئة المحيطة، أو تدلّ على مفاهيم تجريدية في الكيان الاجتماعي الذي يستعملها.

تُختصر غاية كلّ عملية تعلّيم في نقل المعلومة إلى المتعلّم، وإدراك المتعلّم لجوانب تلك المعلومة وفوائدها؛ لذلك تبقى اللغة على اختلاف وظائفها المذكورة، الإطارَ الموضوعي والوسيلة المثلى للتعبير عن ماهية المعلومة وتناقلها، وتبقى عاملاً مساعداً على نمو التفكير وإخصابه وتطويره.

تلك الحقائق العلمية الواردة آنفاً لا تفرّق بين لغة وأخرى ما دامت تلك اللغة تقوم بوظائفها، وتؤكّد أن ما يمتلكه الفرد من مخزون لغوي يَظهر على مقدار ما يكتسبه من معارف تُنقل بمفردات ذلك المخزون. بيد أن أمر اللغة لا يتوقّف عند تلك الوظائف في مجموعة بشرية ما، بل يتعداها بمرور الزمن لتصبح ذاكرة المجتمع وخزينة تقاليده وعاداته، وديوان أدبه، وسجلّ أفكاره، وتغدو إحدى وسائل انصهاره وتوحّده، وبوابة العبور إلى ماضي الجماعة البشرية وتاريخها، وبذلك تكتسب اللغة كينونتها، وتغدو مرآة المجتمع تعكس تناميه وتطوره، ومرونته وتحضّره، وباقي سماته. ولا شك أنها تخبو بتقهقر مكانة مجتمعها في السلّم الحضاري، وتؤدي دوراً رائداً إذا ما كان مجتمعها يستلم زمام القيادة في ركب الحضارة والتقدّم،[9] وتتجلّى تلك الحقائق في موقف الفرد والجماعة من لغتهم، ويصل تعلّق بعضهم بلغته حدَّ جَعْلها الرابطة القومية التي تؤلّف بين قلوب قومٍ بأنْفُسِهم، وتجعلهم أمّة واحدة، ويصل افتتان بعضهم الآخر باللغة حدّ تقديسها،[7] وليس ذلك ببعيد عن اللغة العربية؛ فالبعض يستشهد بالنص القرآني كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف 3]، وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر 28] ليدلّل على عظمة بيان اللغة العربية وقدسيتها، ويرى بعضهم الآخر أن خلود الذكر الكريم يعني ببساطة خلود اللغة العربية في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر 9]، فهل نحن في حاجة إلى إثبات تلك الحقائق أو التحاور حولها؟!.

إن المقاربات السابقة للّغة في إطارها الاجتماعي وجهها الديني تجعل من الصعب على الباحث العربي تقمّص صفة الحياد لدى مقاربة اللغة العربية في الدراسات اللغوية، وتفسّر إلى حدّ ما انقسام المهتمين بالتعليم بين مدافع عن التعليم بالعربية، وبين آخر يبدو أكثر انفتاحاً وينحاز إلى التعليم باللغات الأجنبية لأنها لغات العلم، وفي كلا الحالين تنحرف اللغة عن وظيفتها الرئيسة في إيصال المعلومْة وإدراكها، لتصبح السور الذي يتمترس خلفه المدافعون عنها، أو الضحية التي ينقضّ عليها أعداؤها ليفتكوا بها، وبعيداً عن محاولة الاصطفاف تحت راية أيّ من الفريقين، ثمة جملة من الحقائق والوقائع لا بدّ أن تؤخذ بالحسبان لدى محاولة

الوصول إلى نتائج معقولة بعد ما يُنَيِّف على مئة عام من الجدل البيزنطي حول هذا الموضوع:

- إن الأمم المتقدّمة بلا استثناء تصرّ أن يتعلّم المرء بلغته التي ارتضع لبانها مع لبن أمّه، بل إن العديد من دول العالم الثالث تعتمد التدريس بلغاتها الوطنية.[2]
- إن منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم قد أوصت باعتماد اللغة الوطنية في التعليم إلى أعلى مستوى ممكن، وقد بنيت تلك التوصية على نتائج جهود فريق من الخبراء أفضت إلى أنّ تواصل المتعلّم والمعلّم باللغة الأم هو السبيل الأمثل لإنجاز عملية التعلّم، بعيداً عن تشتت الجهد العقلي بين جوهر المعلومة ومسالك اللغة الدخيلة الوعرة.[12]
- إنّ التاريخ لم يسجّل قط، أنّ أمّة من الأمم حققت التنمية والتقدّم الحضاري الحقيقي بلغة غيرها من الأمم.[2]
- إنّ علم اللغة كالواجب عَلَى أهل العلم، لئلاّ يحيدوا فِي تأليفهم أَوْ فتياهم عن سَنَن الاستواء.[15]
- العربية اليوم قليلة الحظوة مهملة لأن الناطقين بها كذلك، ولأن العرب اليوم مستضعفون، وفي بوتقة العولمة يخشى المستضعف من ذوبان الهوية وفقدان الشعور بالذات، ويهلع من فكرة تحوّله إلى مخلوق ممسوخ مستضعف؟![2]
- تُدرَّس العلوم الطبية في معظم كليات الطب في الوطن العربي بلغات أخرى غير العربية؛ فبلدان المشرق العربي تُدرِّس بالإنجليزية، وبلدان المغرب العربي تُدرِّس باللغة الفرنسية، وتعتمد الصومال الإيطالية، ويتطابق ذلك إلى حدّ ما مع دراسة نشرتها منظمة الصحة العالمية منذ زمن، توصّلت فيها إلى أنّ الدول المستقلة سياسياً تدرِّس الطب بلغاتها، أما الدول التي خضعت لاستعمار فالطب لا يزال يُدرَّس فيها بلغة المستعمر.[6] ولا يخفى على المرء ما يطرحه عصر العولمة من استئثار اللغة الإنكليزية بموقع الريادة، ولا بدّ أن المجتمعات البشرية ستغدو أكثر تقارباً وانصهاراً في هذا العصر، وإن مدخلات تيار العولمة ستختلف بالتأكيد عن مخرجاته.[18]
- إن الإخفاق الرئيس الذي يكتنف أنظمة التعليم في العالم العربي عموماً يتمثّل في الإخفاق في

حيازة أداة التعليم الرئيسة ألا وهي اللغة؛ فمعظم الطلبة يعانون من ضعف القدرة على التعبير بالعربية الفصحى، ومن ضآلة المخزون اللفظي والجهل بموارد تنمية هذا المخزون، ولا يبدو تعليم اللغة الأجنبية أيسر، حالاً لأنّ إتقان اللغة أمر مختلف تماماً عن حفظ بعض المصطلحات والجمل، ويصف واقع الحال في كلية طب تُدرّس باللغة الإنكليزية أحد الأساتذة فيقول: «يظنّ الطالب في السنوات الأولى بأنه يدرس المناهج بالإنجليزية، وهو بعيد كل البعد عن ذلك، فأساتذته يُدرِّسونه في الغالب بلغة هجينة تُستعمل فيها الإنكليزية في المصطلحات فقط، وهو يُدرَّس بهذه الطريقة المهجّنة لأنه لا يستطيع أن يفهم باللغة الإنكليزية، أو لأنّ مستوى الأستاذ ضعيف فيها أصلاً، فينجح الطالب في الامتحانات بحسن الظن، ولا تعجب إن رأيت الطلبة يستعملون الملازم والملخصات بدلاً من المراجع الإنكليزية»[5]، وبالمقابل يرى الكثير من الطلاب الذين يدرسون الطب بالعربية أنهم لا يدرسون المقررات العربية إلا لاجتياز الامتحانات الجامعية، فهم في النهاية يلجؤون إلى المراجع والمصادر الأجنبية للحصول على المعلومات الطبية الكاملة والحديثة، ولهذا يتساءل هؤلاء عن جدوى التدريس بالعربية وتحميلهم عبء دراسة الطب بلغتين؟

- ينصبّ جهد معظم الأساتذة الجامعيين على تلقين المعلومة بحسب الاختصاص، ويستعملون في تلقينها للطالب خليطاً من اللغة الأجنبية، التي تلقّوا بها علومهم واللغة الدارجة التي قد تُطعّم بعبارات عرجاء من العربية الفصيحة، وفي أغلب الحالات لا تكون حصيلة الطالب إلا صدى ما تلقّاه من خلط ولحن.
- إن تعلّم أية لغة تخصّص لا يمكن إتقانه من خلال استعمالها في تعلّم فن أو علم آخر.[4]

حجج المدافعين عن استعمال اللغة الأجنبية في التعليم الطبي:

يسوق المدافعون عن استعمال اللغة الأجنبية في التعليم، ولاسيما التعليم الطبي، جملةً من المبررات لا بدّ من وضعها تحت مجهر البحث والتمحيص لتبيان غثّها من سمينها، وتلك المبررات هي:

- من مسلّمات عصر العولمة أن المصدر الأول لعلوم العصر على اختلافها هو العالم الغربي الذي يعتمد اللغة الإنكليزية، وطالب العلم الذي لا يتقن تلك اللغة لن يأخذ العلم من منابعه بل عبر قنوات ثانوية، فقد أضحى اعتماد اللغة الأجنبية لغةَ تعليمٍ ضرورة ملحّة في التحصيل الأكاديمي، ولا يخفى على الحصيف عمق الهوة بين ما يتيسّر للقارئ باللغة الإنكليزية من معلومات مقارنة بقارئ العربية.[19]
- إنّ اللغة الإنكليزية أضحت قاسماً مشتركاً بين أمم الأرض في عصر العولمة، ومن الغريب أن يسبح المرء عكس هذا التيار الحيوي الذي يلفّ كرتنا الأرضية مصرّاً على التعليم بلغات أخرى.[13،18]
- إنّ اهتمام الجامعات التي درّست الطب باللغة العربية وإصرارها على تعريب جميع الكتب الجامعية أدى إلى عدم اكتراث العديد من الطلاب بالمصطلح الأجنبي المرافق للمصطلح العربي، وفي ذلك نقص هام يصعب تداركه.
- تبدو العربية غير قادرة على متابعة التطورات الهائلة في العلوم الطبية، والمكتبة الطبية العربية في وضعها الحالي عاجزة عن استيعاب التطور الهائل والسريع في العلوم الطبية الذي يسير بسرعة أكبر بكثير مما كان عليه في السنوات السابقة.[14]
- لا يمكن لطالب الطب أو الطبيب الذي لا يجيد اللغة الإنكليزية متابعة التطور العلمي المذهل ما دامت معظم المجلات العلمية والمراجع الطبية تنشر باللغة الإنجليزية.
- كيف سيشارك الطبيب العربي الذي لا يجيد اللغة الأجنبية في المؤتمرات العلمية الدولية وهو لا يجيد لغة المتحدثين بها؟ [14]
- إنّ العديد من المصطلحات العلمية التي ترجمت إلى اللغة العربية جاءت بألفاظ فظة يصعب استيعابها؛ مثل القمعة مقابل Stomoxys أو midge، والمعثكلة مقابل Pancreas...
- لقد أشارت أحدث تقارير اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) إلى أن اللغة العربية من اللغات المرشحة للانقراض خلال هذا القرن؛ فلماذا الإصرار على استعمال كيان لغوي يحتضر؟[8]

- إن الطالب الذي يتعلّم الطب بالعربية يشعر بالنقص أمام أقرانه الذين يتعلمون الطب باللغة الإنكليزية.

حجج المدافعين عن تعريب التعليم الطبي:

في مقابل تمحيص حجج المدافعين عن التعليم الطبي بلغة أجنبية لا بدّ من دراسة حجج المدافعين عن التعريب دراسة دقيقة، ويمكن إجمال حجج الميالين إلى تعريب التعليم الطبي بـــ:

- تعريب الطبّ يعني اعتزازَ أطباء الأمة بلغتهم، وتأكيداً لهوية الأمّة الثقافية، ومن الأمور التي تحول دون أن تُهجر اللغة العربية، وأن تنتهي كالسريانية لغة تُستعمل لغرض قراءة الكتاب المقدس فحسب.[1]
- التعليم الطبي بالعربية تدارك لخطر مؤكد يتهدّد التعليم الجامعي نفسه بالسطحية، ويحرم الطالب من الفهم الصحيح، ويدفعه أحياناً إلى الاستظهار دون إدراك المعنى الدقيق، وقد يغدو قاصراً عن تمثّل ما يتعلّمه عندما تُعتمد اللغة أجنبية وحدها في التعليم.
- التعليم بلغة أجنبية يتطلّب وجود أساتذة يتقنون اللغة التي يجري التعليم بها فهمًا وإلقاءً، ويتطلّب وجود الطالب الذي يتقنها فهمًا واستيعابًا وتحدّثًا وكتابة، ومن المؤسف أننا سمعنا محاضرات طبية أُلقيت في قاعات جامعات عربية مرموقة بلغة هجينة، اختلطت فيها العامية المحلية بالمصطلحات الأجنبية اختلاطًا عجيبًا.
- إن تحقيق شعار الصحة للجميع لا يقوم إلا على أساس متين من مشاركة المجتمع مشاركة كاملة، ولا يمكن إنجاز تعليم المجتمع وتثقيفه بلغات أجنبية دخيلة، فكم سينتظر المثقّف الصحي الذي يخاطب جمهوره العربي ليتجاوب معه هذا الجمهور على اختلاف شرائحة وهو يرطن بلسان أعجمي؟.
- إن زعم عجز الأستاذ الجامعي العربي عن التعليم بالعربية ما هو إلا وهم كبير أو رُهاب Phobia مردّه هذا الجو النفسي المريض الذي أقيم حول التعريب.[2]

- المشكلة ليست في تعريب الطب، بل في تعوُّد تعريب الطب،... والقرار العلمي يجب أن ينبع من القاعدة، وليس من القمّة.[14]
- لا بدّ من التفريق بين مفهوم التعريب والترجمة، فالمطلوب ليس الترجمة في حدّ ذاتها بل التعريب.
- إن تخلّف العرب الطبي وتراجعهم في مجال البحث العلمي يعود إلى جملة أسباب أهمها عدم توطين العلوم والعدول عن استعمال اللغة العربية في البحث والتعليم.

مقاربة حجج الطرفين:

تسعى هذه المقاربة الناقدة لحجج الفريقين كليهما إلى تقليص نقاط الخلاف إلى حدّ أدنى يمكن البناء عليه لرسم ملامح الحلول لهذه الإشكالية، ولا ريب أن مقاربة حجج الفريق المدافع عن اعتماد اللغة الأجنبية في التعليم ستبيّن ضرورة إتقان لغة العصر، اللغة الإنكليزية لدى صفوة الأجيال القادمة من أكاديميين ومفكرين وأطباء ومهندسين وغيرهم ممن يمسكون بناصية القرار، ويقع على عاتقهم رسم مستقبل الأجيال، ولكن بذل قصارى الجهد في تعلّم اللغة الأجنبية على حساب اللغة الأم بدأ يلحق الضرر بالهوية الفكرية والثقافية للفرد والمجموعة، فقد تراجعت اللغة الأم من لغة علم لتصبح لغة الحديث في شؤون الحياة اليومية قبل أن تتلاشى في أتون اللغة الوافدة مع تعاقب الأجيال.

إن التراث الإنساني حلقات متواصلة تربط الماضي بالحاضر،[16] وليس في اعتماد اللغات الوطنية، وتلمّس أساليب إتقانها ما يعني بحال من الأحوال السباحة عكْسَ تيار العولمة إذا ما اختصر هدف العولمة النبيل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات 14]، وكما أضحى من الضروري في عصر العولمة تفريق جوهر الإسلام ومبادئه الرفيعة السامية عن أفعال بعض المسلمين ونتائجها الكارثية أحياناً، فإنّ اهتمام الباحث يجب أن ينصب على جدوى التعريب وفحوى رسالته دون أن يُتخذ من عثرات هذه الجامعة أو تلك، التي

اعتمدت تدريس الطب باللغة العربية، دليلاً فيصلاً يقطع الشك باليقين، ويثبت عقم التعريب واتباعه.

أمّا وصم العربية بالعجز عن متابعة التطورات الهائلة في العلوم، وعدم قدرة المكتبة الطبية العربية في وضعها الحالي عن استيعاب التطور الهائل والسريع في العلوم الطبية الذي يسير بسرعة أكبر بكثير مما كان عليه في السنوات السابقة فظاهره صحيح، ولكن الإشكالية لا تكمن في اللغة ذاتها، بل في غفلة وتكاسل الناطقين بها عن اعتمادها وسيلة تواصل علمي، ولا شك أن اعتماد تدريس الطب بلغة أجنبية سيقلص ذاك الجمهور من طلبة الطب الذي يتوق إلى قراءة النص العربي، وأن عمق الشعور بتمام المستورد الغربي ونقصان مصادر المعلومات الحديثة المترجمة إلى العربية، إلى جانب ما يعتور الترجمة من مواقع الوهن والخلل في كثير من الأحيان، يتجلّى بتوجس وهلع الكثيرين ممن درسوا علومهم الطبية الأولى بلغة أجنبية من اعتماد اللغة العربية في ممارسة التعليم الطبي، يضاف إلى ذلك تهيب معظمهم من وعورة النص العربي، وخشيتهم من تراجع لغتهم الأجنبية التي تعدّ خيط تواصلهم اليتيم مع مصادر العلم الحديث.

لقد رَسَخَت خلال القرن المنصرم نظرة بائسة بين أطباء الأمة جعلت الكثيرين منهم يهرعون إلى التغريد بلغات دخيلة قبل أن يُوصموا بالنقص لأنهم لا يجيدون إلا العربية، وانتهى الأمر بالسواد الأعظم منهم إلى إهمال عربيتهم دون أن يصبحوا قادرين على التعبير المتقن باللغة الدخيلة التي تعلموا الطب بها، وقد أفضى هذا الواقع إلى تزعزع ثقة الكثيرين منهم بأنفسهم، وفي الختام قد لا تكون المهارات السريرية والعملية للطبيب في منأى عن تأثير سوء التواصل واضطراب الثقة بالنفس، ولسوف يستتبع ذلك مواقف متضاربة من العربية والتعليم بالعربية.

لا ريب أن الشعور بالنقص أو الخشية من اعتماد اللغة العربية هو ابن الخيبة والشك بمجمل المنظومة الاجتماعية، وعنوان انفصال المرء عن تاريخه وتراث أمته، ومقدمة لغربة

جديدة بحثاً عن هوية، وما يثير السخرية والسخط أن هذا الغرب الذي يمدّنا بقشور حضارته، ويحولنا، بوصفنا أمة، إلى قطيع مستهلك، قد لا يقبل أن يمنحنا "هويته المباركة وتفانيه في خدمة حقوق الإنسان" في شرق الأرض ومغربها، إضافة إلى رأفته المعهودة بحقوق الحيوان.

أمّا الشكوى من صعوبة ووعورة الكثير من المصطلحات الطبية العربية فهي في مكانها الصحيح، بيد أنّ هذه الشكوى قديمة العهد؛ فالمطّلع على أحدث إصدارات المكتب الإقليمي لمنظّمة الصحة العالمية من القاموس الطبي الموحّد سيلمس جنوحاً بيّناً إلى السهولة، وحرصاً على استعمال المسمى الأجنبي منقولاً بأحرف عربية.

وفي النهاية هل تبدو العربية من اللغات التي ستنقرض خلال هذا القرن كما أشار تقرير اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم) لعام 2006؟[8]

إن غياب المقاربة الناقدة لهذا التقرير حوّل بعض المؤتمرات المتعلقة باللغة العربية والتعريب إلى احتفالات تأبينية لروح تدفن حيّة، بعد أن تكهّن البعض بفنائها لغاية في نفسه أو لواقع لمس فيه تراجع مكانة اللغة، فانطلقت جوقات النادبين والمعزّين، ولم يخطر ببال أكثرهم السؤال عن شروط فناء اللغة، ولماذا سيتكلّم أحفاد العرب خلال أقل من قرن في عمر أمتهم بلغة أخرى؟

إن هذا التقرير بحاجة إلى قراءة علمية متأنية قبل أن يطلق المستعربون النار عليه، أو أن يضيفه المستغربون إلى قائمة حججهم الطويلة التي تجعلهم عازفين عن التعريب. لكنّ استقراء التاريخ يثبت أن التعدد لم يضعف اللغة العربية طوال تاريخها، بل إنها تفاعلت مع اللغات الأخرى من موقع قوة عن طريق الترجمة والتعريب، ولم تتراجع في محيط يطبعه التعدد اللهجي واللغوي؛ لقد كان استشعار التهديد ناجماً عن الاحتلال الأجنبي الذي مارست لغته (ولا تزال) الهيمنة اللغوية المرتبطة بالهيمنة السياسية.[11]

في مقابل ما سبق من حجج المستغربين والردّ عليها يبيّن الاستعراض الناقد لحجج

المستعربين أن بعض تلك الحجج تنطلق من حقائق موضوعية لكنها تأخذ طابع الغلو والمبالغة بعيداً عن مقاربة وظيفة اللغة على العموم، والبحث عن دور اللغة الأم في عصر العولمة. فلا شك أن اعتماد اللغة العربية في التعليم الطبي من الوسائل التي تحول دون تراجع مكانة اللغة العربية لتصبح بعد أمد لغة تُستعمل لغرض قراءة الكتاب المقدس فحسب،[5] ولكن القَسم الذي يقسمه الأطباء منذ عهد أبوقراط لا يفرّق بين أجناس البشر وألوانهم وطبقاتهم، ويحثّ على تطبيب العدو بجودة تطبيب الأخ والصديق، ومعظم الأطباء على سطح الأرض يحملون في يقينهم إنسانية مهنتهم، ولعل أفصح لغات تواصلهم مع مرضاهم هي تخفيف آلام أولئك المرضى ومعاناتهم، سواء تلقوا علوم الطب بالعربية أم بالإنكليزية أم بأية لغة أخرى، وليس في هذه الحقيقة الواضحة ما يدعو إلى انسلاخ الطبيب الإنسان عن مجتمعه وتراثه وأصالته.

من جانب آخر لا تتأتى سطحية التعليم الطبي من مجرّد اعتماده بلغة أجنبية، فسطحية التعليم تنجم إمّا عن ضحالة المادة العلمية، أو ضعف أداء الأساتذة أو سوء إعداد الطلاب، ولا يمكن الحكم على مجمل التعليم باللغة الأجنبية من إخفاق تجارب بعض الجامعات، بعيداً عن مناقشة مدى استعدادها للتدريس بلغة أجنبية وإهمال الدولة للتعليم الطبي.

لقد أخذ الطب المسند أو الطب الموثّق بالأدلة مكانه في عالم اليوم، لكنّ الأدب الطبي فيما يتعلّق بدراسات وبحوث لغة التعليم الطبي لا يزال ضحلاً، وفيما يلي عرضٌ لخلاصة ما توصلّت إليه الدراسات والبحوث التي نشرت حول لغة التعليم الطبي وتعريبه:

- **في دراسة أجراها الأستاذ الدكتور زهير السباعي والدكتور عدنان البار، وجد أن النسبة المئوية للمصطلحات العلمية في كتب الطب تبلغ قرابة 3.3%، وأن سرعة القراءة لدى الطالب العربي تزداد بنسبة 43% عند تحوّله إلى العربية، وأنّ استيعاب الطلبه يرتفع بنسبة 15%، وأنّ 75% من الطلاب يفضلون الإجابة بالعربية عند سؤالهم بالانجليزية، كذلك يختصر الطالب 50% من الوقت عندما يتعلم باللغة العربية.**[6]
- بينت نتائج الامتحان الذي يجرى للأطباء الوافدين إلى الولايات المتحدة باللغة الإنكليزية،

ويتقدّم إليه زهاء عشرة آلاف طبيب من مختلف أنحاء العالم، أن مستوى الأطباء السوريين لا يقل عن مستوى زملائهم من مختلف أنحاء العالم؛ أي إن تعلم الطب باللغة العربية لم يكن عائقا أمام الأطباء السوريين يحول دون اجتيازهم ذاك الامتحان بنجاح.[6]

- اتضح في دراسة أجريت في كلية الطب بجامعة الزقازيق في مصر على أوراق الإجابة التي كتبت باللغة الإنجليزية أن 10% من الطلاب استطاعوا التعبير عن أنفسهم جيداً، وأنّ 65% سردوا المعلومات المطلوبة، ولكنهم لم يحسنوا التعبير، وأن 25% لم يفهموا المعلومات.[6]
- تبين في مسح أجراه المجلس الصحي الأميركي الدولي American International Health Council (AIHC) بين الطلاب المتخرجين من الجامعات السورية الذين يعملون أو يدرسون في الولايات المتحدة أن 32% منهم وجدوا أن انتقالهم إلى دراسة الإنكليزية والتحضير للامتحانات الأميركية كان سهلاً، في حين وجده 24% صعباً، ووجده 44% صعباً بعض الشيء.[6]
- خلصت مراجعة تجربة كليات العلوم الصحية بجامعة الجزيرة (السودان) في تعريب المناهج (1999-2003) إلى نجاح تجربة التعريب في عمومياتها، وأن هذه التجربة ستكون أكثر نجاحاً وقبولاً إذا ما عولجت بعض المعوقات، وتيسّرت الإمكانات اللازمة.[20]
- بينت أحدث الدراسات المنشورة التي أجريت في جامعة الجزيرة في السودان حول تقويم أثر التعريب في تحصيل الطلبة، أن الأداء العام للطلاب الذين تلقّوا تعليمهم باللغة العربية كان أفضل مقارنة بأقرانهم الذين تلقّوا تعليمهم باللغة الأجنبية.[21]
- تقصّت دراسة أجريت في كلية الطب بجامعة ابن الجزار في تونس مفردات علم الأعراض الجراحي والشعاعي وتكيّفها في المحيط الثقافي العربي، واستنتج القائمون على الدراسة عدم صحة النظرية القائلة بحيادية اللغة الفرنسية المعتمدة في التعليم الطبي؛ فإلى جانب ما يعترض الطلبة من صعوبات في فهم القضايا العلمية، تبيّن حثها غير المباشر على نشر الثقافة الغربية في المؤسسات الأكاديمية في تونس.[25]

- تناولت دراسة حديثة أجريت في جامعة كاليفورنيا أثر أثنية الطالب ولغة الطفولة الأولى في تقييم مهارات التواصل لدى أداء الفحص السريري (الإكلينيكي)، وخلصت إلى أن مراقبة إتقان اللغة الإنكليزية وفق التقييم المعتمد لاختبار القبول في كليات الطب Medical Collage Admission Test (MCAT) وامتحان الترخيص الطبي United States Medical Licensing Examination (USMLE) تبين أن تكلّم لغة أخرى غير الإنكليزية في الطفولة الأولى يترافق بتدني علامة مهارة التواصل في الفحص السريري.[23]

نحو رؤية شاملة مشتركة:

إذا كان اختلاف الرأي في المجتمعات الغربية يعني تنوع تلك المجتمعات وثراءها فيبدو أن اختلاف رأي القائمين على أمر من الأمور في العالم العربي لا يزال يعني الشرذمة والتفرق؛ لذلك تبقى قاعدة الاتفاق على خطأ خير من الاختلاف على صواب أهون الشرور، إذا كان البديل عنها فسيفساء غير متجانسة من التوجهات والبرامج التعليمية، ولعل في اتفاق الأساتذة الجامعيين العرب، الذين نذروا أنفسهم لتعليم الأجيال القادمة من الأطباء، على مقومات طبيب الغد التي ذكرت في مقدمة هذا البحث تكون بوابة لرؤية شمولية أكثر وضوحاً واتفاقاً؛ فمجمل وظائف اللغة التي ذكرت آنفاً يستطيع المرء أن يؤديها بلغته الأم أو باللغة الأجنبية برغم الفروق الواضحة التي ترجّح كفّة اللغة الأم، ولكن هل يمكن لمقدّم للرعاية الصحية الرفيعة المستوى والشاملة، ولصانع القرار وللمُحدِّث البارع ولقائد المجتمع ولعضو الفريق الذي يؤمن بروح الفريق، أن يكتسب كل هذه المواصفات دون إتقان لغة التواصل بمريضه ومجتمعه، ولغة التواصل بفريقه وزملائه على امتداد قريتنا الكونية، ودون أن يكون على مقربة من ينابيع العلم والمعرفة ينهل منها مباشرة متى شاء؟

إنّ اعتماد لغة يتيمة في تعليم الطب مع بداية الألفية الثالثة ما هو إلا إجهاض لمشروع طبيب الغد بموصفاته المذكورة آنفا؛ ففي عصر العولمة لن يكتب لأي مؤسسة أو مركز بحث

أن يخطو في مجال البحث العلمي بغياب القدرة الحقيقية على التواصل، سواء كان ذلك التواصل على صعيد المجتمع الذي تُقدّم له الخدمات، أم على صعيد المؤسسات والمراكز الوطنية والإقليمية الأخرى، أم على الصعيد العالمي. وبقطع النظر عن اعتبار أن اللغة الحية هي لغة العصر– وهي في عصرنا الراهن الإنكليزية بلا منازع – أو اعتبار أن اللغة العربية هوية الأمة، وصيانتها فرض عين على جميع أبنائها، فإن واجب رجل العلم يكمن في القدرة على التواصل الجيد مع العربي والأعجمي بلغة واضحة مفهومة تنقل ما يودّ القائل قوله دون لبس، وعندها يتحتم على أهل العلم من العرب ألا يكونوا من دعاة التغريب أو التعريب بل من دعاة فلسفة التواصل، فإذا ما كان الأمر كذلك أصبح من السهل عليهم أن يكتشفوا أن طيور العلم لا تطير بجناح واحد، وأنه لا يمكن إتقان فن التواصل في عصرنا الراهن بإجادة لغة واحدة من اللغتين، فضلاً عن التعثّر في اللغتين.

وخلاصة القول: إن الهيئات التعليمية في كليات الطب على امتداد الوطن العربي مدعوّة اليوم إلى التلاقي والبحث في سبل تمكّن طلبة الطب العرب من لغتهم الأم إلى جانب اللغة الإنكليزية أو الفرنسية، في مناهج تتقاطع في اعتمادها ما يفي بتخريج طبيب ماهر سريرياً، واثق من نفسه، ومؤمن بأمته وحداثته في آن واحد، فمن المستحب في عصر العولمة اعتماد ثنائية اللغة في التعلّم والتعليم، وما ذلك على طلبة الطب الذين يُعَدُّون من الطلبة المتميزين في المجتمعات العربية بعسير.

المراجع العربية:

1. أبو رجيله، جمال الدين أحمد حسن (1999). التعريب: حدود الواقع وآفاق المستقبل، تعريب الطب، العدد 7.
2. الخياط، محمد هيثم (2002). التعريب: حديث مستطرد، تعريب الطب، العدد 13.
3. الديداوي، محمد (2000). الترجمة والتواصل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
4. الزهراني، حسن علي (2006). تعريب الطب :قول على قول!، صحيفة الوطن، العدد 1979، بتصرّف.
5. الزهراني، حسن علي (2006). تعريب الطب: من يتقدم لحمل الراية؟، صحيفة الوطن، العدد 1923.
6. السباعي، زهير أحمد وعثمان، ماجد (1996). دفاع عن تعليم الطب باللغة العربية، مؤتمر تعريب التعليم الطبي، الكويت.
7. الشراح، أحمد يعقوب (2007). أهمية استخدام اللغة العربية في التعليم العام والعالي، تعريب الطب، المجلد 11، العدد 2.
8. القاسمي، علي (2007). انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي، مجلة الفوانيس (الألكترونية) الأحد 2006/3/18.
9. المبارك، مازن (2006). اللغة أثمن ثروات الإنسان، جريدة الثورة، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، الثلاثاء 2006/7/11.
10. المعتوق، أحمد محمد (1996). الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، 212، بتصرّف.
11. تكريتي، عدنان (1996). المنظمات القومية والدولية المعنية بتعريب الطب وأدوارها في الماضي والحاضر والمستقبل.
12. بوطالب، عبد الهادي (2004). الحقوق اللغوية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
13. حنفي، حسن وجلال العظم، صادق (2000). ما العولمة؟، دار الفكر، بيروت، لبنان.
14. سمرة، خيري أحمد (1996). تعريب الطب، مؤتمر تعريب التعليم الطبي، الكويت.
15. صقر، السيد أحمد، تحقيق الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، جمهورية مصر العربية 1977.
16. عطري، مصطفى ماهر (2006). الطب العربي: الماضي والحاضر والمستقبل، تعريب الطب، المجلد 10، العدد 1.
17. علي، نبيل سليم (2005). التعريب وتوطين العلم، تعريب الطب، المجلد 9، العدد 2.
18. غليون، برهان وأمين، سمير (2000). ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، بيروت، لبنان، بتصرف.

19. كلاس، حازم (1326). العربية في عصر الثورة الحاسوبية بين التعريب والتغريب، مجلة المعلوماتية، العدد 18.

20. محمداني، أحمد عبدالله والجيلي، ضياء الدين وعثمان، عثمان طه أحمد (2005). تجربة كليات العلوم الصحية بجامعة الجزيرة في تعريب المناهج (1999-2003)، المجلة الصحية لشرق المتوسط، منظمة الصحة العالمية، المجلد 11، العدد 2/1.

21. محمداني، أحمد عبدالله (2006). تقييم أثر التعريب على تحصيل طلبة الطب، المجلة الصحية لشرق المتوسط، منظمة الصحة العالمية، المجلد 12، العدد 2.

22. يوسف، جمعة سيد (1999). سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 145، بتصرّف.

English References:

23. Alicia Fernandez et al (2007). Impact of Student Ethnicity and Primary Childhood Language on Communication Skill Assessment in a Clinical Performance Examination، J Gen Intern Med. 22 (8): 1155-60

24. Al Muhanna F and Parashar, S. (2002). Medical education in 21st century, College of medicine، King Faisal University.

25. Ben Abdelaziz A. et al (2003). Survey of surgical and radiological semiology modules and their adaptation to the Arabic cultural, East Mediterr Health J. 9 (3): 223-9.